بائعة الخبز



بقلم:
رابح خدوسي

رسم:
عبّاس بن يوسف

الطبعة الثانية 2015

دار الحضارة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى 2007

الإيداع القانوني: 2006-3021

ردمك: 9961-767-48-9

دار الحضارة

كانتِ الطفلةُ حليمةُ تسكــنُ على ضفةِ وادي حمام ملوان، الذي يتوسطُ جبلينِ كالبسمةِ في الشفتينِ، هذَا المكانُ الجميلُ بغابتهِ الخضراءِ، ومياههِ الصافيةِ، وسكّانهِ الطيبينَ، الشهيرُ بمياههِ المعدنيةِ المتدفقــةِ التي تصلحُ لعلاجِ كثيرٍ من الأمراضِ الجلديةِ وداءِ المفاصلِ والعظامِ وغيرهما...

كانت عائلتُهَا فقيرةً تعيشُ على ما تأتي بهِ الصغيرةُ حليمةُ من بيع الخبزِ اليدَوي لزوّارِ الحمّامِ.

الخُبـــزُ الدائريُ الشَّكلِ، اللذيذُ المذاقِ، الذي تحضِّرهُ أمُّهَا فتحملهُ هي على طبقٍ، وتطُوفُ بهِ بين الزوَّارِ الذينَ يقبلونَ عليهِ بنهمٍ شديدٍ،،، وقدْ بلغت شهرتهُ المدنَ المجاورةَ كالبليدة والجزائر والأربعاء، ولم تسبقهُ سوَى شهرةِ دِيكَة حمامِ ملوان والتي يتهافتُ على شرائهَا الزوَّارُ، وأكثـــرهَا شهرةً الديكُ الذي يصيحُ في حمـام ملوان، إذ سيكـونُ أولَ من يدفعُ ثمن



صياحِهِ في معدة المريض...

في يومٍ من الأيامِ، افتقـــدَ الناسُ الطفلةَ حـــليمة، ولم يجدِ الزوّارُ من يبيعُهم الخبزَ... فتساءلوا عن حليمةَ كثيرًا!!

قال أحدهُم:

– قد تكونُ الأمطارُ والسيولُ جرفتْ كوخَ العائلـــةِ المحاذي للوادِ في ليلةِ فيضانِه، فماتت حليمةُ بائعةُ الخبزِ غرقـــــا مع عائلتِهَا المتكونةِ من أبيها وأمِّهَا وشقِيقِـها اسماعيل.

واحـــتارَ الناسُ لغيابِ الطفلةِ حـــليمة، التي كانت تجولُ وتصولُ في الشارعِ الطويلِ بحمام ملوان، سنواتٍ وسنواتٍ، مشـــاركةً بـصوتِهَا الرقـيقِ العذبِ في عرسِ الطبـيعةِ الجميلةِ زقزقةَ عصافيرِ الغابـةِ المجاورةِ، ورقرقـةَ المياهِ في الوادي القـادمِ من المقـــــــطعِ الأزرقِ عبرَ روافدِهِ الثلاثةِ، وادي الحَدّادِ من جبـالِ الشـريعةِ، ووادي الآخرةِ ووادي بـومعان حـــيث

شلالاتُ المياهِ المتدفقةِ...

غابـت حليمـةُ فصارَ كلُّ سائـحٍ يشتري خبـزَهُ من المخبزةِ الصناعيةِ وهو يتنهَّد لغيابِ ذلكَ الخبـزِ الذي كانت رائحـتُهُ الشهيَّةُ تُشَمُّ من بعيدٍ...

* * * *

ومرَّتِ الأيامُ والســنون، وفي أحــدِ الأيامِ تفاجأَ السُّكانُ بظاهرةٍ جَدِيدَةٍ، حدثٌ عجيبٌ أدهشَهم !!

انتشرَ خبرُه بسرعةٍ، وصار حديثَ الكبارِ والصِّغارِ!!.

ما هو الحدثُ العجيبُ؟!.

أربـعُ فتياتٍ غريبـاتٍ يبـعنَ الخبـزَ اليدويَ في المدينةِ، هنَا وهناكَ !!

–من هنَّ،، من أين أتينَ؟!

تعَجَّبَ السكانُ والزوارُ، ثم قالُوا:



– منذُ غيابِ الفتاةِ حليمة، مدةَ أربعينَ سَنَةً لم نرَ مثلَ سألَ السكانُ واحدةً من الفتياتِ الجميلاتِ؟!

– هل تسكنين هنا؟

أجابتْ:

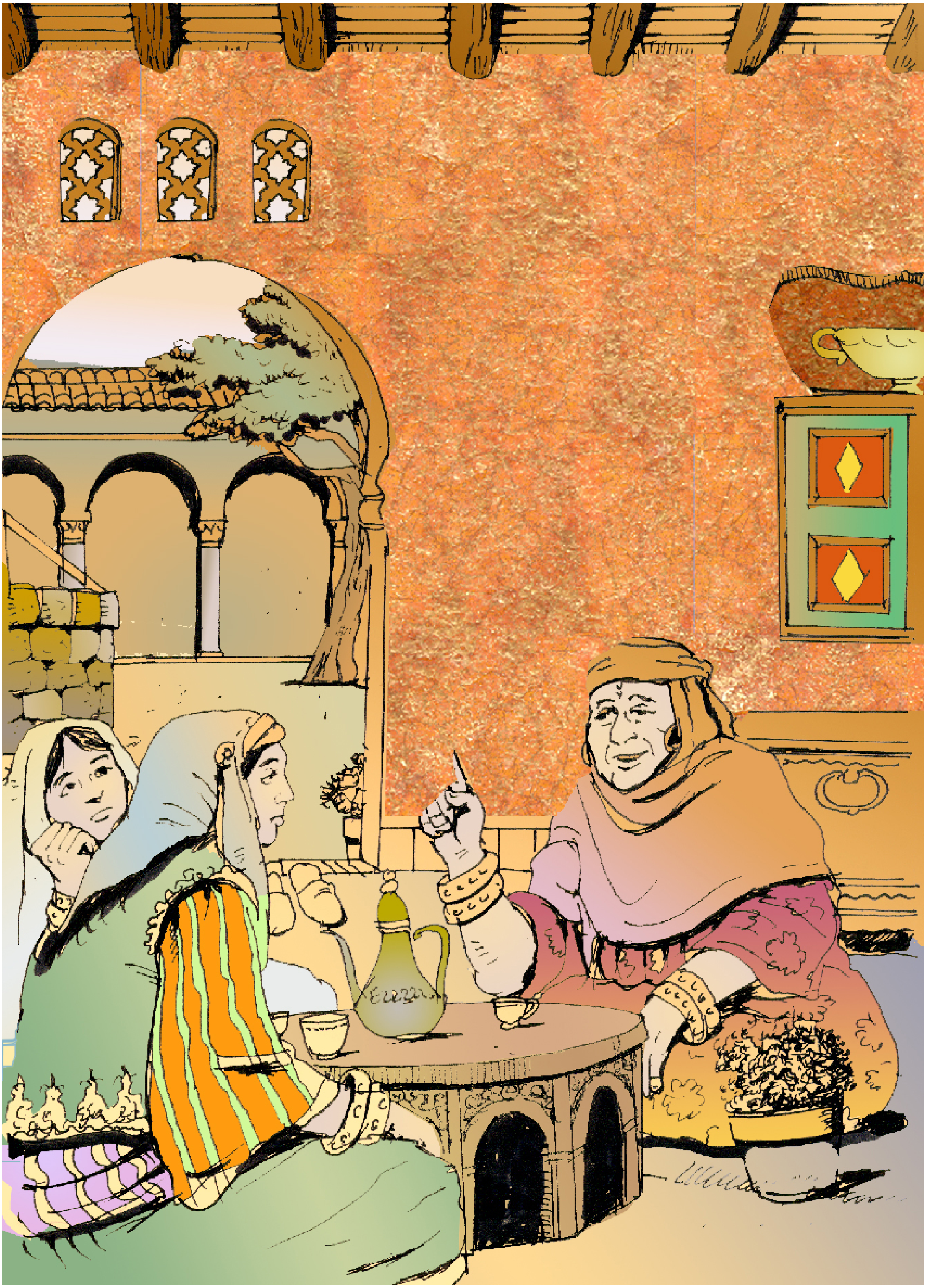
– منذُ البارحة؟!

واندهَشَ النَّاسُ لمّا عرفوا أن الفتياتِ: سهام، شهرزاد، حيزية، خديجة بناتُ حليمةِ الطفلةِ التي غابت منذُ أربعينَ سنةً، وظنّوا أنّهَا غرقتْ مع عائلتهَا أثناءَ فيضانِ الوادي...

أقبل الجيرانُ على بيتِ حليمة ليتأكدوا من الخبرِ، فاستقبلتهُم بفرحٍ، وتعجَّبوا لغيابها وهي طفلةٌ ولعودتها وهي امرأةٌ تجاوزتِ الخمسينَ، ولها بناتٌ...

بعد السلامِ والترحابِ، سألتهَا إحدَى الجاراتِ:

– كيفَ غِبْتِ عنَّا هذهِ المدَّةَ الطويلةَ؟!



أجابتْ حليمةُ:

– تلكَ قصةٌ طويلةٌ ... وغريبةٌ أيضًا!!.

قالت امرأة أخرَى:

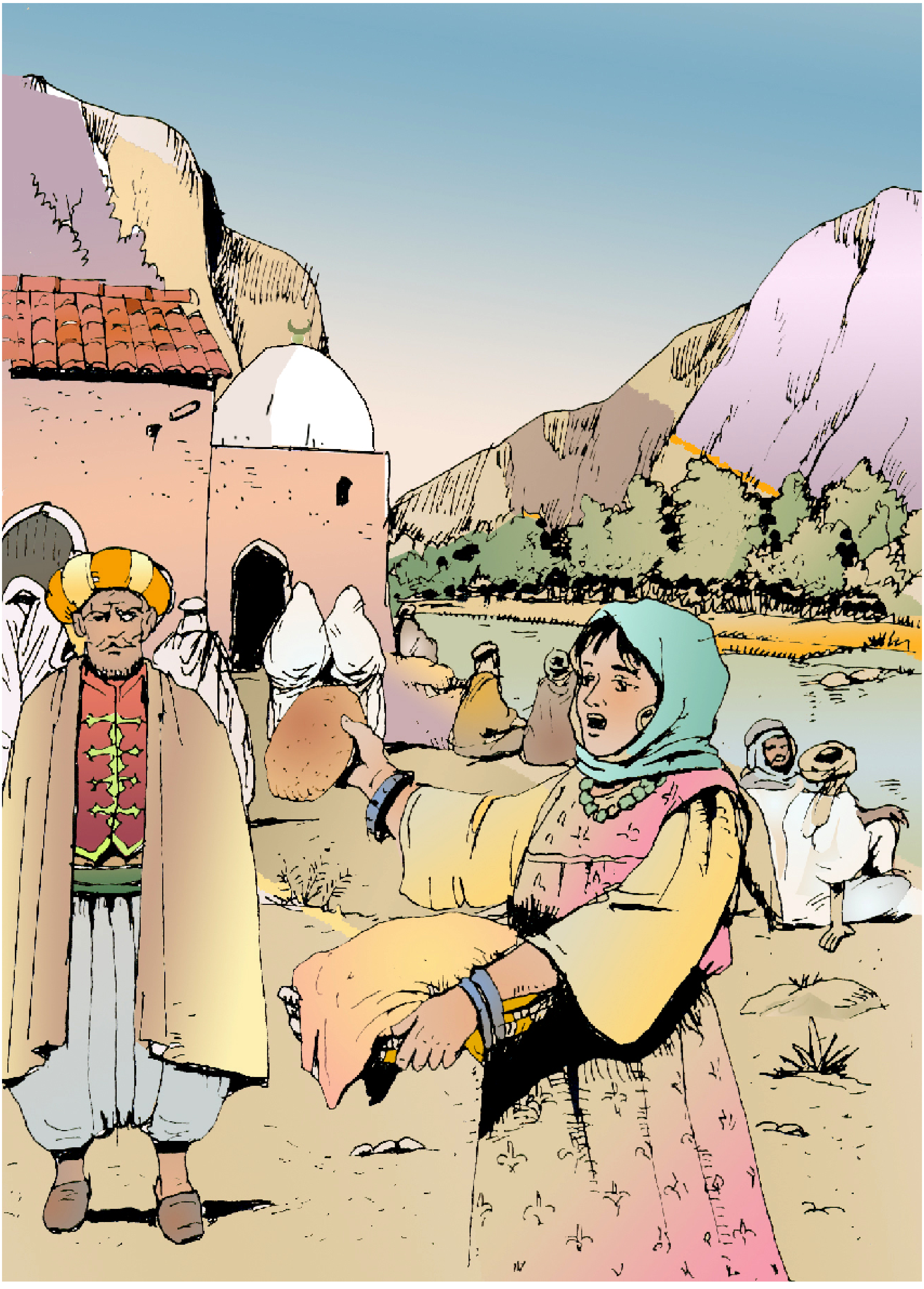
– نريدُ سماعهَا.

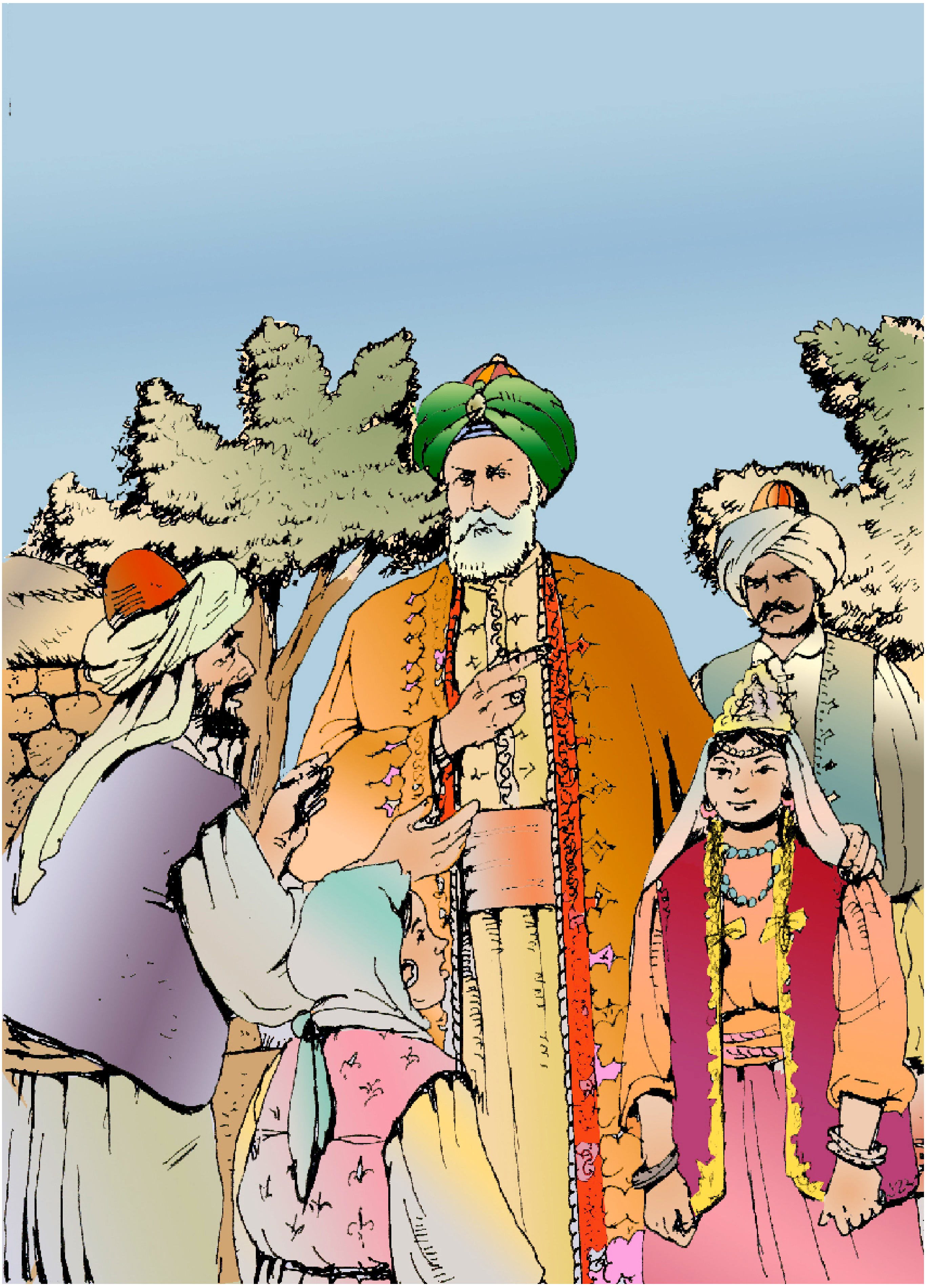
فابتسمتْ حليمةُ وقالتْ:

– سأحكي لكُم بعدمَا أحضِّرَ الخبزَ لبناتي، كِي يخرجنَ إلى الشارعِ، فالزوَّارُ في الانتظارِ.

وبعدَ أنْ أتمّتْ عملَها تمدَّدتْ على الحصيرِ، وقالتْ للنسوَةِ:

– في يومٍ من الأيامِ وأنَا صغيرةٌ أبيعُ الخبزَ للنَّاسِ في هذهِ القريةِ، تعرفتُ على الطفلةِ عزيزة، إحدَى بناتِ الزوَّارِ القادمينَ من مدينةِ الجزائرِ، ثم صارتْ صديقةً لي، أنتظرُ قدومَهَا مع والدهَا كل أسبوعٍ، فأصحبهَا معي إلى كوخنَا،





كانت عزيزةُ طفلةً جميلةً وحساســـــــــةً، تعاني من عاهةٍ في رجلهَا، تعيقـهَا عن المشـي، لكن بـعدَ استحـمامهَا بـالمياهِ المعدنيةِ في الحمَّامِ، بدأتْ تتماثلُ للشفاءِ، وبعدَ شهورٍ شُفيتْ تمامًا وصارتْ تمشي كغيرهَا من البناتِ...

فرحــتْ عزيزةٌ كثيرًا بـهذا الشـفاءِ، وحـلّتِ السـعادةُ في أسرتهَا، فقال لهَا والدهَا:

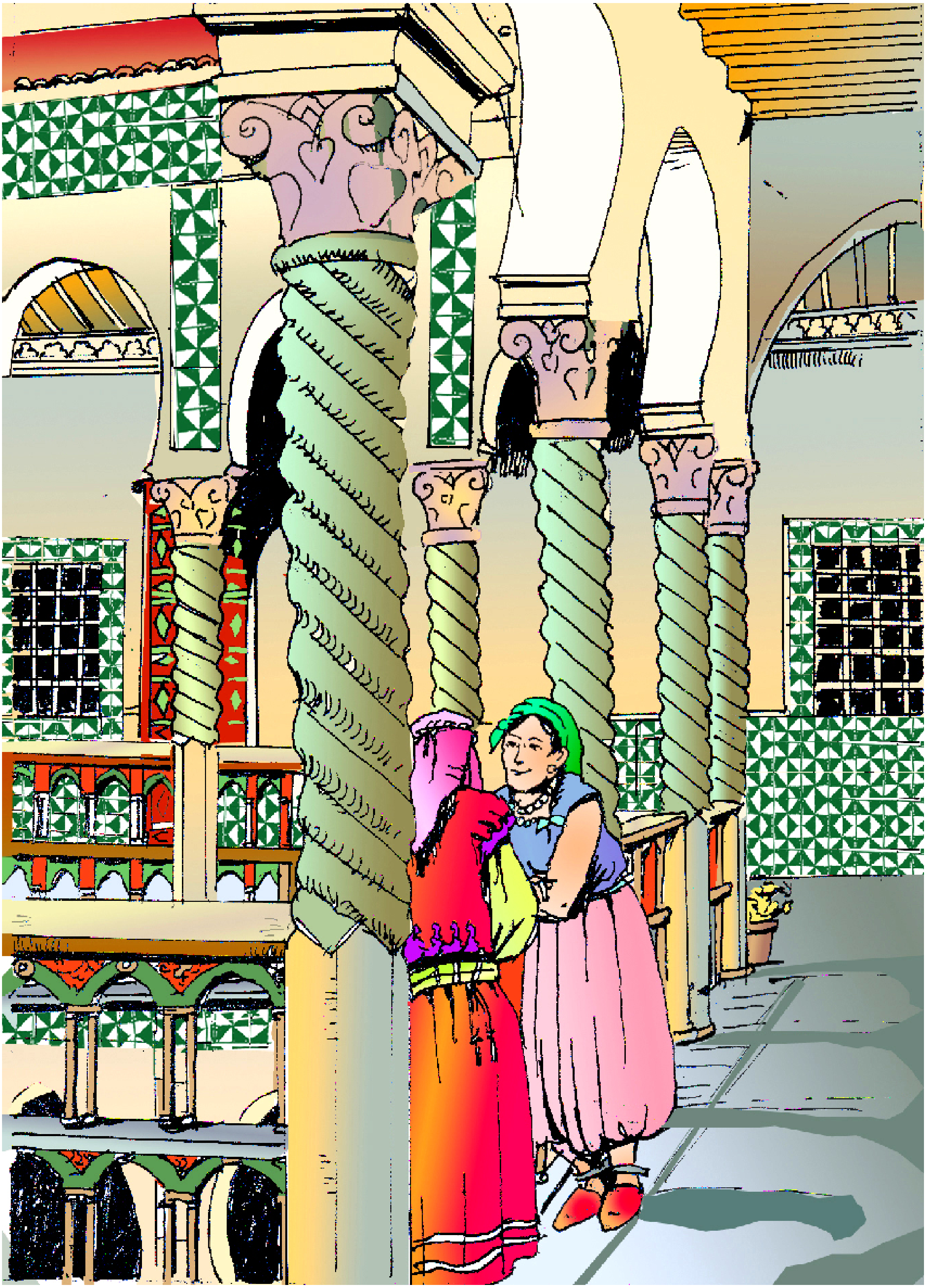
- تمنيْ عليَ ما شئتِ؟

فقالتْ لهُ:

- أريدُ العيشَ مع صديقتي حليمة.

فأخبرنَا والدُها برغبةِ وحيدتِهِ، وطلبَ مِنْ والدي السَّمَاحَ لي بالسفرِ معهم إلى مدينةِ الجزائرِ، لكنَّ والدي -رحمه الله- لم يرضَ لي العيشَ بـعيدةً عنهُ، وكذلكَ كانتْ رغبــتي...

وهنا حدثتِ المفاجأةُ...!!.



قالتِ النسوةُ في شَغفٍ:

– ما هي هذهِ المفاجأةُ؟

أجابتْ حليمةٌ:

– لقد عرّفَنا والدُ الفتاةِ عزِيزة بنفسهِ، وطلبَ من جميعِ أفرادِ العائلةِ مرافقَتَهُ لمدينةِ الجزائرِ..

قالتِ النسوةُ:

–ومن يكونُ أبوهَا...؟؟

صمتَتْ حليمةُ ثم تَنَهَّدتْ وقالتْ:

– إنهُ حاكمُ مدينةِ الجزائرِ ... الداي التركي...

تعجّبتِ الحاضراتُ، وكأنَهنَّ لا يصدقنَ ما يسمعنَ من قصَّةِ العجوزِ حليمة، التي واصلت حديثَهَا بَعْدَ صَمْتٍ قصيرٍ:

وأقمتُ في قصرِه مع أسرتِي، قربَ صديقتِي ابنتهِ عزيزة..

ومرَّتِ الأيامُ ونحن في قصرهِ نعيشُ في سعادةٍ وهناءٍ...



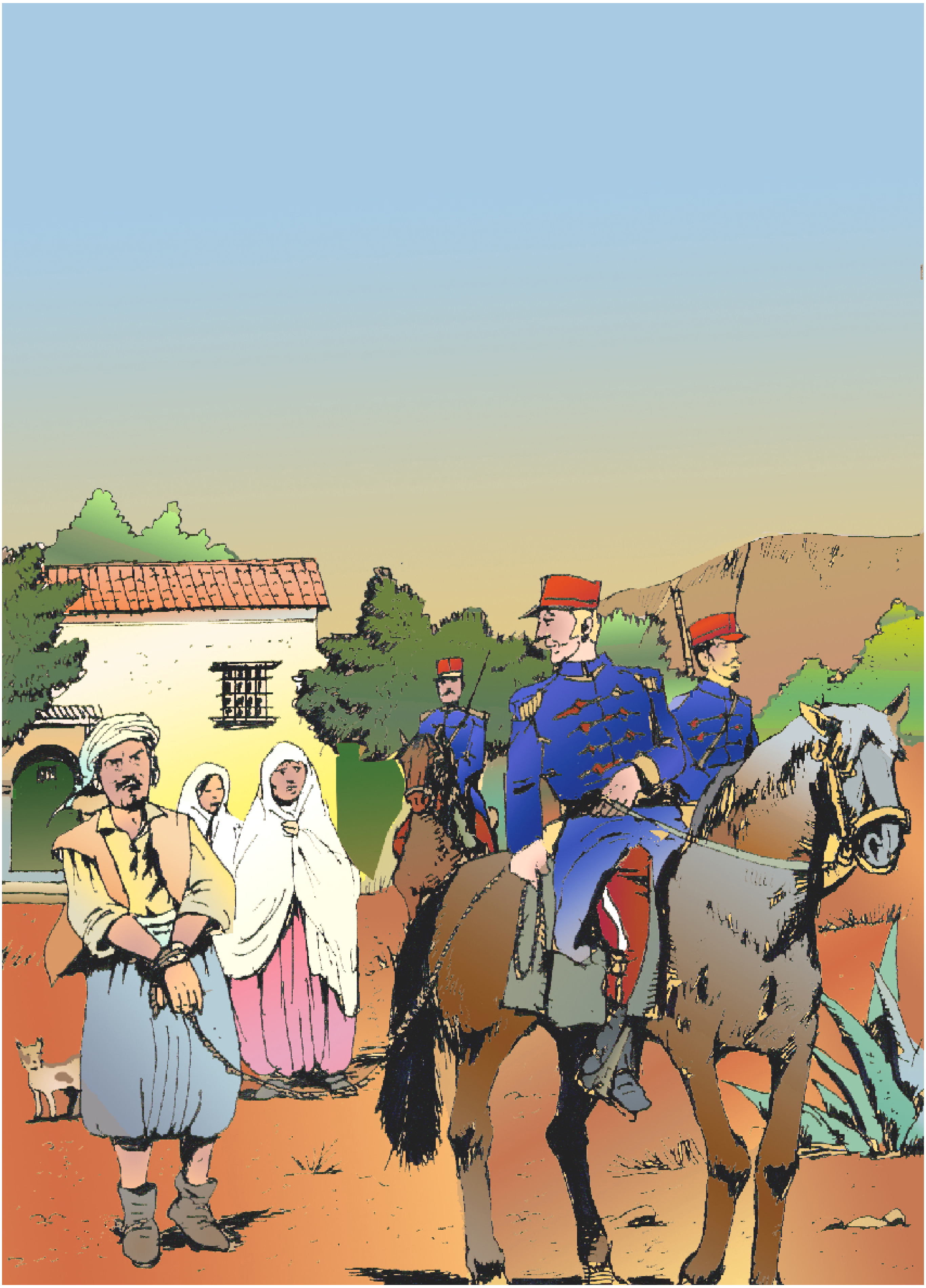
وجاءَ الغزو الأجنبيُ فأشــقَى الجميعَ، وتحوَّلتْ ســعادتُنَا إلى تعاسةٍ بعد أنْ حدَثَ ماحدثَ لعائلةِ الدّاي...

سألتها النساءُ:

– وماذا حدث لعائلتكِ؟

أجابتْ:

– توفيتْ أمِي بعدَ استشهادِ أبـي قـرْبَ مدينةِ اسطوالِي، وهو يُقَاومُ الاحـتلاَلَ الفرنسِي، وبقـيتُ مع أخي وحـيدين فتكَفّلت بِنَا إحــــدَى العائلاتِ المالكةِ للأراضي بمتيجة، كانَت تزورُ عائلة الداي من حينٍ لآخَر، وتزوجنِي أحدُ أبناءِ هذهِ العائلةِ فأنجبنَا أربعَ بناتٍ وأقبلتِ الأيامُ بأحداثِها المرّةِ إذ سَلبَ الفرنســيون من عائلةَ زوجي أراضيهَا الخصبـــةِ، ولما صاحَ زوجي في وجوههم كديكِ الحمَّام، قبـــــضوا عليه وأرسلوهُ في باخرةٍ إلى بلادٍ بعيدةٍ، يقـالُ لهَا كاليدونيَا، ولم



يعدْ منها حتىَّ الآن.

أمَا أخي اسماعيل فبـــعدَ أن طاردهُ المحتلونَ في متيجة اتَّجهَ نحو جِبـــالِ الأطلسِ التلي، ولم يعد هو أيضًا، ولا أدري هل حقيقةً قدْ افترستهُ الأسودُ والذئابُ أم أنَّهُ أقـام هناكَ بـيتًا، ولهُ أولادٌ وأحفادٌ في قِممِ هذهِ الجبالِ؟!!.

وبـعد أنْ مسحـتِ الأمُّ حـليمةَ دمعةً حـارةً تدحـرجت على خدِّها الفاترِ، قالتْ:

– وفي هذهِ الظروفِ الصعبـــةِ،، لم أجدْ كفيلاً... وعوضً أن أمـدَّ يَدي للنَّاسِ أطلبُ رغيفًا ... فـكَّرتُ في العـودةِ إلى الأصلِ فَحملتُ بناتِي ورجعتُ إلى بيتنَا القـديمِ، وإلى حـرفتِي الأولى التي ورثتُهَا عن أمي، صناعةِ الخبـزِ اليدوِي، وفضَّلتُ أن تمتدَ يدي عامرةً بالخبـزِ ، وَقـد صدقَ من قـالَ: "حـرفةٌ في اليدِ خيرٌ من ألف مد".



This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.